

المحاضرة الرابعة/المبحث الثالث: فلسفة التاريخ

أولاً: ظهور فلسفة التاريخ

لا يوجد اجماع بين المؤرخون حول بداية "تفسير التاريخ" او "فلسفة التاريخ"، حتى مع وجود شبه اجماع على كون هيرودوت أبا التاريخ، يعترض البعض بالقول: "ان هيرودوت ليس اباً للتاريخ لان ما دونه يراعه ليس اكثر من انطباعات سائح لما شاهده في ضوء عقلية عصره" اما ما فعله توكيديديس (٤٦٦-٣٩٥ ق.م)، فكان شيء كبير اذ كان اول من حاول "ان يكتب التاريخ بحيادية وموضوعية، حتى اثارت نزاهته حفيظة حكام زمانه المهزومين في معارك (بيلو بونيز) الشهيرة بين اسباطه واثينا فتعرض للنفي لأنه تساءل اين النصر الذي تعلنه قياداتنا؟ والاهم من ذلك قوله: "أرى وكأن التاريخ يعيد نفسه" والتي ثمت من يرى بانها "صارت ايقونة المعنيين بعلم التاريخ تلك الكلمة السحرية التي باتت السؤال الذي يثيره التاريخ ويناقشه المؤرخون في مختلف العصور وربما كانت كلمات توكيديديس بداية ظهور ما صرنا نسميه تفسير التاريخ او فلسفة التاريخ"، وبهذا يمكن القول بان عبقرية هذا الرجل اوصلته واوصلت الفكر الى اكتشاف المنهجية في التاريخ، ومن ثم تفسير احداثه، ولكن الامر لم يكون بهذه السهولة فالكثابة التاريخية مرت بمراحل من المد والجزر، ولا تزال مستمرة في قبول ورفض هذه النظرية او تلك بل هناك من يرفض اخضاع التاريخ للتفسير فصار هناك تفسير اخر خاص برفض التفسير، والواقع ان الحاجة الى اعمال تفسيرية شاملة نشأت حينما صار الانسان يجد ان الوقوف عند سرد الاحداث وتسجيلها لم يعد كافياً لمعرفة ما حصل بل لابد من رؤية معمقة لادراك طبيعة الأمور، فنشأة الحاجة الى الفلسفة او تفسير الوقائع وربطها لاكتشاف معنى الفعل الإنساني. فهناك من يجزم بان كل ما حدث ويحدث في التاريخ يمكن رصده او توقعه، اذا ما تمت مراقبة ومراعات الظروف التي سبقتة واحاطت به. وهو ما يؤكد احقيته بان يعتبر علماً، نعم انه ليس علم تجربة واختبار الواقع. وانما هو علم (نقد وتحقيق لوثائقه) التي دونت فيها احداثه الماضية وتفسيرها، وكذلك فهو علم من حيث دراسته منهجياً، على ضوء قواعد اكتسبها بمرور الزمن، دفع الجدل المستمر حول علمية التاريخ بالعاملين فيه الى تصنيفه

ضمن المعرفة الفلسفية بعد ان مرة بالمعرفة الدينية اللاهوت والأدبية والعلمية، لكنه لم يستقر فيها رغم عدم الاتفاق على ذلك والواقع الذي صنف فيه التاريخ قد بدأ منذ عهود حتى وان لم يستعمل لفظ الفلسفة مقرون بالتاريخ، قبل فولتير الذي استخدم ذلك بقصد عرض الاحداث التاريخية عرضاً تحليلياً نقدياً او علمياً او بتعبير ادق كان هذا المفكر يقصد بفلسفة التاريخ نوعاً من التفكير ليقيد فيه المؤرخ بمقاييس منطقية، بدلا من الاعتماد على ما جاء في الكتب او الاعتماد على عنصر الصدفة (حسين، طبيعة المعرفة التاريخية وفلسفة التاريخ، ٢٠١٢، الصفحات ١١-١٥).

ظهر مصطلح فلسفة التاريخ واستعمل لأول مرة في عصر التنوير في فرنسا خلال القرن الثامن عشر وأول من استخدمه عام ١٧٥٦ هو فرونسون آرويه فولتير، في كتاب عنوانه (فلسفة التاريخ) وكرر الفكرة في كتاب اخر (مدخل في سلوك وطبائع الأمم وروحها) وقصد بذلك حسب عبد الجبار ناجي "التفكير بالتاريخ تفكيراً عقلياً"، ففلسفة التاريخ عند فولتير تهدف الى تنقيح الدراسات التاريخية وتعديلها فالتاريخ النقدي هو تحرير الفكر الإنساني من ما جاء في الكتب القديمة (ناجي، ٢٠٠٨، صفحة ٥٨)، ويضيف الملاح بانه أراد ان ينبه المؤرخين على ضرورة استخدام منطق الفلسفة العقلاني في دراسة التاريخ من اجل نقد الروايات والاحبار التاريخية وتنقيتها مما دخل فيها من خرافات واساطير وكل ما لا يتفق مع حكم العقل والواقع، (الملاح، ٢٠١٢، صفحة ٣) ووفقاً للملاح قد تكون فلسفة التاريخ وجدت لحاجة المؤرخين ليس الفلاسفة، لكن ذلك لا يعني انها قد بدأت معه، فالتفلسف في التاريخ قد ظهر قبل ورود المصطلح بمدة طويلة، ولم يقتصر على ما قدمه الفلاسفة من رؤى ونظريات حول مسيرة الكون والتاريخ البشري منذ القدم، فقد كان عبد الرحمن بن خلدون فيلسوف التاريخ اول من أشار الى ان التاريخ "نظر وتحقيق وتعليل للكائنات وعلم بكيفيات الوقائع والأسباب" وهذه العبارة تعبر بوضوح عن المعنى الحقيقي للتاريخ، وتشير الى ان هناك قوانين وأسباب تتحكم في حركة التاريخ (طحطح، ٢٠١٨، صفحة ٨)، ذلك التعريف الذي عده مرتضى النقيب بانه غاية في التطور بالنسبة لمفهوم التاريخ ويمثل تعبير حي عن ثنائية التاريخ كموضوع يدور حول احداث الماضي واخباره كما نقول كيمياء او فيزياء، والتأريخ وهو ما يمثل العلمية التي يضيفها المؤرخون على أعمالهم

حينما يمارسون "النظر والتحقيق والتعليل" على تلك الاحداث والوقائع أي ما يقابل التفلسف في الجزئيات مع المحافظة على الموضوعية والزمانية والالتزام بمنهج البحث التاريخي الصارم (النقيب، ١٩٩٩، الصفحات ٤-٥). أي على حد تعبير غوستاف لوبون "تتألف فلسفة كل علم من مبادئه العامة، وإذا تحول هذا العلم تحولت فلسفته ايضاً" (لوبون، ٢٠١٨، صفحة ١٣).

يعرف النقيب فلسفة التاريخ بانها تعني "النظر الى الوقائع التاريخية بنظرة فلسفية من اجل معرفة العوامل الأساسية التي تتحكم بها" وربما ينتهي هنا التعريف بالنسبة لعمل المؤرخين او فلاسفة التاريخ عند النظر للموضوع من زاوية الاحتراف للمهنة، لكنه يضيف الى تعريفه "والعمل على استنباط القوانين العامة الثابتة التي تتطور بموجبها الأمم والدول على مر القرون والاجيال" ويرى ان تعريفه بما يحتويه من ثنائية ينطوي على مفهوم عام لفلسفة التاريخ ويميز بين فلسفة التاريخ التي تعني من الناحية المنهجية الفلسفة التحليلية للتاريخ او الفلسفة النقدية للتاريخ وفقاً لعفت الشرقاوي ويحدد اهتمامها بدراسة وتحليل مناهج البحث التاريخي عند المؤرخ وادواته العقلية من وجهة النظر الفلسفية من الممارسة النقدية الى التحليل التاريخي وربما يشترك الفلاسفة مع المؤرخين في حالة قيامهم بدراسة ما انجزه ذلك المؤرخ، لكن في اطار المنهج الفلسفي، اما ما يتعلق بالأمر من زاوية منهج البحث التاريخي فهو حكراً على المؤرخين دون غيرهم وهو ما طالب النقيب من المؤرخين الالتفات اليه في مناقشة الرسائل والاطارح الجامعية لتخصص التاريخ ودعا لجان المناقشة الى المناقشة بفلسفة التاريخ، وتلك الدعوة ليست ببعيدة عن دعوة المؤرخ عبد العزيز الأمراني للمتخصصين بالكتابة التاريخية في عالمنا العربي بالقول: "يمارس المؤرخ العربي كتابة التاريخ وفقاً للنمط التقليدي القائم على سرد الوقائع وجمعها في مصنفات ومجلدات تظل في الغالب حبيسة الرفوف ونادراً ما تقرأ.. ان الكتابة التاريخية العربية ما تزال حبيسة الرؤية التقليدية للتاريخ موضوعاً ومنهجاً.. لقد ان الأوان ليخرج المؤرخون العرب من ابراجهم العاجية ويطلون على مشكلات الحاضر كمنطلق للبحث والتفكير في الماضي بغية المساهمة في إيجاد حلول لمشكلات الواقع العربي.. [ويضيف] انها دعوة صريحة الى المهتمين بالكتابة التاريخية في الوطن العربي لتجاوز التاريخ السردى، والعمل على تأسيس تاريخ نقدي /اشكالي يبحث في المشكلات الراهنة للمجتمع اعتماداً على

مقاربة علمية ونقدية لا ترى في دراسة الماضي هدفاً لذاته بل مدخلاً لفهم الحاضر لاعادة بناء علاقة جديدة مع الزمن التاريخي" (الأمراني، صفحة ١) اما النوع الاخر وهو الفلسفة التأملية للتاريخ التي تهتم بالنتائج التي يتوصل اليها المؤرخون كأساس لبناء صروح علمية وفكرية جديدة فهي ربما من واجبات الفيلسوف (النقيب، ١٩٩٩، الصفحات ٥٦-٥٧).

ويتفق خالد طحطح حول تلك الثنائية لفلسفة التاريخ في الدراسات التاريخية الحديثة التي تشير الى معنيين اثنين من جوانب دراسة التاريخ، المعنى الأول "يجعل من فلسفة التاريخ دراسة لمناهج البحث من حيث الطرق المستعملة في الكتابة التاريخية، ونوعية الوثائق المعتمدة وكيفية التحقق من الاخبار، ومدى الموضوعية والحياد في تحليل الاحداث" اما المعنى الثاني ويرى بانه الأكثر أهمية وانتشاراً، فهو "تقديم وجهة نظر عن المسار التاريخي ككل... واكتشاف القوانين المتحكمة في ذلك... وامكانية التنبؤ بسير المستقبل البشري" (طحطح، ٢٠١٨، صفحة ٨)، تلك الثنائية التي يختصرها يحيى الملاح بـ "الكلية و"العلية". (الملاح، ٢٠١٢، صفحة ٧) ويبدو ان الرؤى أعلاه هي الأكثر انتشاراً لان فلسفة التاريخ لم تعد حكراً على الفلاسفة والمؤرخين دون غيرهم من المتخصصين في العلوم الاجتماعية والإنسانية الأخرى.